سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب السابع

منهج الوقاية

لتأمين مسار الأمّة واستدامة صلاحها

(منهج الوقاية في خمس عشرة آية)

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1443هـ-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين القائل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله، وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد، فهذا هو الكتاب السابع من سلسلة التفسير الأصوليّ، وموضوع هذا الكتاب منحصر في دراسة خمس عشرة آية، وقد مكثت بين يديها ناظرًا متدبّرًا يتقدّمني سؤالان كبيران: السؤال الأول: ما المعنى الجامع لهذه الآيات؟ والسؤال الثاني: كيف انتظمت المعاني في سياق هذه الآيات؟

أما المعنى الجامع لهذه الآيات، فقد بدا لي أنها تبني منهجًا موزونًا للوقاية من الفتن والضلالات؛ لاستدامة الاستقامة على الحقّ.

وأما نظمُ المعاني وترتيبها في هذه الآيات فقد ظهر لي من السياق عشرة أصول، وقد اختصرتها وجمعتها في أربعة أصول كما يلي:

الأصل الأول: بيان حقيقة التوحيد وبراهينه، والتحذير من فتنة الذين لم يعقلوا الآيات الدالّة على الوحدانيّة، فاتخذوا من دون الله أندادًا، وهذه الفتنة أخبث الفتن.

[1] سورة الإسراء الآية (9)

الأصل الثاني: دعوة الناس إلى الأكل من الحلال الطيب، ونهيُهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعن سلوك مسالكه، وفي اقتران الأمر بالأكل من الحلال الطيب بالنهي عن اتباع الشيطان تذكير بالفتنة الأولى التي دَلَّى فيها الشيطانُ آدمَ وزوجَه بغرور، ثمّ ذكر لنا الله تعالى فتنةَ التقليد واتباع الآباء وتعطيل العقول، وهي نموذج للفتن الناجمة عن اتباع أمر الشيطان بالقول على الله بلا علم.

الأصل الثالث: دعوة المؤمنين إلى اتباع شريعة الله في الأطعمة بالأكل من الطيّبات، وشكر الله تعالى، وبيّن لهم المحرمّات من المطعومات وما يحلّ للمضطرّ، وفي هذا دلالة على شمول الشريعة، وأنها إنما شُرعت لمصلحة العباد؛ فإذا بُني هذا التشريع الذي أصله الإباحة والتخيير على جلب المصلحة ودرء المفسدة، فمن باب أولى مراعاة ذلك فيما علت رتبتُه وعَظُمَ شأنُه. ثمّ حذَّرهم من الفتن التي تعارض مقاصد هذه الشريعة وتبطلها، فذكر فتنة كتمان الكتاب، وبيع دين الله بثمن قليل، وفتنة الاختلاف في الكتاب والتنازع والشقاق (وكذلك فتنة اختزال البرّ في استقبال المشرق والمغرب تُعدّ من جنس هذه الفتن).

الأصل الرابع: إبطال فتنة اختزال البرّ والدِّين في استقبال المشرق والمغرب، والتذكير بالنموذج الأمثل لأهل البرّ والتقوى وفق ميزان الشرع.

والأمة اليوم بحاجة إلى اتباع منهج القرآن الكريم في درء مفاسد الفتن التي عمّت ديار الإسلام في هذا العصر، ومن أخبثها فتنة "الوَهْن":

حُبّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَة الْمَوْتِ، فعن ثوبان قال: قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[1].

وإن العمل بمنهج الوقاية من الفتن كفيل بدرء الوَهْن عن الأمّة؛ لأن هذا المنهج يرسّخ فيهم خصال البرّ والسداد، ويقي العباد مسالك الضلال والفساد، وكلّما قويت خصال البرّ في الناس، حسُنت صفاتهم، واجتمعت كلمتهم، وثقل وزنهم، وعلا شأنهم، وزادت هيبتهم، وقويت شوكتهم، وعزّ جمعهم، فلا مكان للوهْن في قلوبِ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

وأرجو أن تُسهِم هذه الدراسة في توضيح منهج الوقاية لاستدامة مشروع الدعوة وتأمين بلوغ معاني الرسالة الخاتمة إلى الأجيال القائمة والقادمة بيّنة سالمة.

---

[1] رواه أبو داود، رقم (4297).

[2] سورة البقرة آية (177)

وأسأل الله تعالى أن يقيني وجميع المسلمين شرّ الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

د. محمد عبده محمد بشر القباطي.

15 صفر 1443هـ

22 سبتمبر 2021م

هيكل البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، ومدخل، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المدخل: منهج الوقاية في خمس عشرة آية:

لقد توالت مقاطع سورة البقرة، واتسقت مقاصدها، من التأسيس ودعوة الناس إلى اتباع الهدى وعبادة ربّهم، والنهي عن اتخاذ الأنداد، ثمّ ذكرت أول قصّة في القرآن الكريم، وفيها أول فتنة: فتنة الأكل من الشجرة، وبيّن فيها كيد الشيطان، ثمّ ذكر قصّة يهود، ونقضهم الميثاق، وتنحية الناكثين، وتولية الوارثين، وبيّن زاد السائرين وعدّتهم، ثمّ بيّن المنهج الأمثل لعلاج المصائب الكونيّة والشرعيّة (الطوارئ)، وها هو يضع بين أيدينا منهجًا موزونًا وإطارًا راسخًا للوقاية في خمس عشرة آية؛ ليؤمّن مسيرة الاستخلاف وتبليغ الدعوة تامّة سالمة حتى قيام الساعة.

فهو بحقّ منهجٌ جزلٌ يوجزُ ما سبق ذكره من المعاني الكليّة لسورة البقرة، كما أنه أصلٌ مكين وإطار أمين لما سيأتي تفصيله من الشرائع، فقد أودع الله تعالى في هذه الآيات أصولًا جامعة؛ فبدأ بأصل الأصول في المنقول والمعقول: وهو بيان حقيقة التوحيد، وقد جعل آيات الخلق عليه دليلًا، ثمّ حذّر من نقض التوحيد، فذكر أخبث صور الشرك: فتنة (اتخاذ الأنداد)، ثمّ فتنة اتباع خطوات الشيطان في آيتين (وفيه إشارة إلى قصّة أكل آدم عليه السلام كنموذج لبيان الضرر في اتباع خطوات

الشيطان، وإن لم تكن زلّة آدم عليه السلام شركًا)، وفتنة التقليد واتباع الآباء، وإغلاق العقول، ثمّ التفت التفاتة كريمة إلى الأُمّة المؤمنة فدعاها إلى التنعم بالطيبات، وشكر المُكرم المنعم، وأوقفها عند حدوده تحليلًا وتحريمًا؛ لتكون أسوة حسنة في اتباع الرسالة وحسن استقبال النّعم بالشكر، ثمّ حذّرها من الفتن التي تصيب حَمَلة الكتاب: كتمان الكتاب، والمتاجرة بالدين، والاختلاف، والشقاق، واختزال الدين في بعض شعائره، فدفع فتنة التديُّن المنقوص الغالي والجافي المقتصر على بعض الشعائر، ثمّ ختمها بأحسن خاتمة فوضع ميزان الوسطيّة والبرّ والصدق والتقوى بصيغة مجملة؛ فقدّم لنا منهجًا موجزًا موزونًا لوقاية الدّعوة والأمّة الوارثة من الفتن التي أضلّت الأمم الناكثة.

هذا ما ظهر لي من سياق السورة، وقد قرأت ما تيسّر ممَّا كتبه العلماء في الآيات، وقد سررت كثيرًا حين وجدت العلّامة محمد دراز قد عدّ هذه الآيات ذات وحدة موضوعيّة، فقد جعله العلّامة دراز مقّدمة للمقصد الثالث حسب تقسيمه لمقاصد سورة البقرة، وهو مقصد عرض شرائع هذا الدّين تفصيلًا[1]. وقد تحدّث العلّامة دراز عن هذه

---

[1] قال رحمه الله تعالى: "اعلم أن هذه السورة (سورة البقرة) على طولها تتألف من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا الترتيب: المقدمة (في عشرين آية 1- 20) في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدًّا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض. المقصد الأول (في خمس آيات 21-25): في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام. وعود على بدء: في أربع عشرة آية "26- 39". المقصد الثاني (في ثلاثة وعشرين ومائة آية 40- 162) في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق. المقصد الثالث: المدخل إلى المقصد الثالث: (في خمس عشرة آية 163- 177)، وأما المقصد نفسه، فحصره (في ست ومائة آية 178- 283) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلًا. المقصد الرابع: (في آية واحدة 284) ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها. بعد الإيمان.. والإسلام.. يأتي الإحسان. الخاتمة (في آيتين 285- 286) في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم"

الآيات قائلًا: "نيفٌ وعشرٌ من الآيات الكريمة، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث: "الخطوة الأولى" تقرير وحدة الخالق المعبود. "الخطوة الثانية" تقرير وحدة الآمر المطاع. "الخطوة الثالثة" فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة"[1]. ويشبه هذا المسلك ما ذهب إليه صاحب الظلال رحمه الله تعالى، فقد جمع الآيات (158 – 177) في درس واحد، فقال رحمه الله تعالى: "يستهدف هذا الدرس تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح مع الاستمرار في مواجهة يهود المدينة الذين لا يكفون عن تلبيس الحق بالباطل في هذه القواعد وكتمان الحق الذي يعلمونه في شأنها وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها.. ولكن السياق يتخذ في هذا الدرس أسلوب التعميم وعرض القواعد العامّة، التي تشمل اليهود وغيرهم ممن يترصدون للدعوة. وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التي تترصدهم في طريقهم بصفة عامة. وهكذا نجد السياق ما يزال في المعركة.. المعركة في داخل النفوس لتصحيح التصورات والموازين. والمعركة مع الكيد والدس والبلبلة التي يقوم بها أعداء المسلمين"[2].

دراز، محمد بن عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار القلم للنشر والتوزيع - بيروت، 1426هـ-2005م، ص 196 – 197، بتصرف يسير

[1] دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص242، بتصرف يسير

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط: 3، 2001، ج1/ 148 بتصرف.

المبحث الأول: بيان حقيقة التوحيد وبراهينه، والتحذير من فتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا، وهي أخبث الفتن التي تنقض التوحيد. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان كلمة التوحيد وترسيخها:

لقد بدأ ربنا عزّ وجلّ الأمر والنهي في صدر السورة بالأمر والنهي في أهم شرائع الإسلام، فأمر الناس بعبادته وحده، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، ونهاهم عن جعل الأنداد لله ربّ العالمين، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وفي هذا الموضع من السورة يذكر الله تعالى هذين الأمرين بالأسلوب الخبريّ؛ ليثبّت قواعد العقيدة في القلوب ببيان كلمة التوحيد، ودرء ما ينافيها من الأسباب المفضية إلى اتخاذ الأنداد؛ لأن هذا الأمر هو أصل الأصول وأعظم مقاصد الشريعة، فإن "أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد، وإخلاص الدين كلّه لله هو تحقيق قول لا إله إلا الله. فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلًا لا نقدر أن نضبطه؛ حتى إن كثيرًا منهم يظنون أن التوحيد المفروض: هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كلّ شيء وربّه، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية، الذي أقرّ به مشركو العرب، وبين توحيد الإلهية، الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجمعون بين التوحيد القوليّ

[1] سورة البقرة آية (21)

[2] سورة البقرة آية (22)

والعمليّ. فإن المشركين ما كانوا يقولون: إن العالَم خلقه اثنان، ولا أن مع الله ربًّا ينفرد دونه بخلق شيء، بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1]، وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى، يجعلونهم شفعاء لهم إليه، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويحبونهم كحب الله"[2].

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[3].

تستهلّ الآية خطابها، وتفتح أبوابها على مشهد جليل جميل، وقد حشدت الناس جميعًا في صعيد واحد! المؤمنَ والكافر، والأبيضَ والأسود، والغنيّ والفقير، والقوي والضعيف! كلّهم مجموعون في أوثق عروة! عروة التوحيد! ثمّ أخذت تبسط أمامهم صراطًا مستقيمًا تغمره الرحمة من كلّ جوانبه؛ لتعبر عليه القلوب المبصرة المؤمنة متآلفة مطمئنة، فتأوي إلى جنات ونهر ومقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، وأما القلوب العمياء فتتخبط في الظلمات، وتهوي بها الأهواء في مكان سحيق!

تأمّل أيها المؤمن هذه الإضافة الشريفة العامرة بالتكريم والتلطُّف إنها تسوّي بين العباد، وتطرح استعلاء الظالمين واستكبار المجرمين أرضًا، "وَإِلَهُكُمْ" أيها الناس "إِلَهٌ وَاحِدٌ"، فحقيق بكم أن تستمسكوا بأوثق عروة؛ لتعلو أقداركم، وتضعوا كلّ أشباح الآلهة والأصنام المنصوبة للإضلال والإذلال تحت أقدامكم، ولتؤدّوا

---

[1] سورة لقمان آية (25)

[2] مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، القاهرة، ط3، 2005م، ج24/264-265

[3] سورة البقرة آية (163)

حقوق هذه الأخوة، فتلتقوا على كلمة سواء بألّا يتخذ بعضكم بعضًا أربابًا من دون الله تعالى! قال العلّامة السعديّ: "يخبر الله تعالى – وهو أصدق القائلين – أنه "إِلَهٌ وَاحِدٌ" أي: متوحّد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سميَّ له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحقّ؛ لأن يؤلَّه ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كلّ شيء وعمت كلّ حيّ، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كلّ نقمة، وبرحمته عرَّفَ عبادَه نفسَه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب"[1].

وقال العلّامة ابن القيم: "فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتُصدِّقُها جوارحُه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلًا كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحقّ بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الربّ تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلامًا كثيرًا

[1] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 2000 م ص77

طيبًا يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب"[1].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" "وَإِلَهُكُمْ" إضافة لفظ "إله" إلى ضمير المخاطبين للتشريف، ففيه رفعة للعباد، وتقريب وترغيب واستئناس للقلوب النافرة، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه بأن له صفات حسنى ليست لأحد غيره، فهو: "إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"، وقد التأمت الصفتان بالاسم "إله"؛ لتصير الصفتان مع الموصوف كالشيء الواحد. "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"، "إله" نكرة في سياق "لا" النافية للجنس، فهي نصٌّ في العموم، ثمّ أخبر عن نفسه باسمين من أعظم أسمائه الحسنى أثرًا في صلاح العباد: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ؛ لتَنْزِلَ القلوبُ في فردوس التوحيد والرحمة نُزُلًا لا تبغي عنه حِوَلًا. قال العلّامة ابن عاشور: "والإخبار عن إلهكم بإله تكرير؛ ليجري عليه الوصفُ بواحد، والمقصود وإلهكم واحد، لكنه وَسَّطَ لفظَ "إِلَهٌ" بين المبتدأ والخبر؛ لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه كما تقول: "عالم المدينة عالم فائق"، وليجيء ما كان أصلُه خبرًا مجيء النعت، فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف؛ لأنه صار نعتًا؛ إذ أصل النعت أن يكون وصفًا ثابتًا، وأصل الخبر أن يكون وصفًا حادثًا، وهذا استعمال متبع في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره؛ ليُبنى عليه وصفٌ أو متعلقٌ"[2]، وهذا نظير قول الله تعالى: "إِلَهاً وَاحِداً" في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3]،

---

[1] انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر المشهور بابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، 1973م، ج1/172-173

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، الدار التونسية للنشر – تونس طبعة 1984م، ج2/74-75 بتصرّف يسير.

[3] سورة البقرة آية (133)

"فإنما أُعيد لفظ "إلهًا" ولم يقتصر على وصف "واحدًا" لزيادة الإيضاح؛ لأن المقام مقام إطناب، ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله، وهذا أسلوب من الفصاحة؛ إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلّق، ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعًا"[1].

وفي قوله: "لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" "تأكيد لمعنى الوحدة وتنصيص عليها لرفع احتمال أن يكون المراد الكمال كقولهم في المبالغة هو نَسِيجُ وَحْدِه، أو أن يكون المراد إله المسلمين خاصة كما يتوهمه المشركون ألا ترى إلى قول أبي سفيان لنا العزى ولا عزى لكم. وقد أفادت جملةُ: "لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" التوحيدَ؛ لأنها نفت حقيقة الألوهية عن غير الله تعالى"[2].

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج734/1 بتصرّف يسير.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج75/2 بتصرّف يسير.

المطلب الثاني: بيان الآيات والدلائل على التوحيد:

إن الخَلقَ دليلٌ قاطعٌ على وحدانية الربّ عزّ وجلّ، وعلى استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، فحقائق الخلق تحول بين العقل والشرك، وتقي العقل فتنة الإلحاد، ولا يجحد بها إلا كلّ مكابر كفور. قال الإمام الطبريّ: "ثم عرَّفهم تعالى ذكره بالآية التي تتلوها، موضعَ استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبَّههم عليه من توحيده وحُججه الواضحة القاطعة عُذرَهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر: من أنّ إلهكم إله واحد، دونَ ما تدَّعون ألوهيته من الأنداد والأوثان، فتدبروا حُججي وفكروا فيها، فإن من حُججي خَلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلكُ التي تجري في البحر بما يَنفعُ الناس، وما أنزلت من السماء من ماء فأحييت به الأرض بعد موتها، وما بثثتُ فيها من كل دابة، والسحاب الذي سَخرته بين السماء والأرض. فإن كان ما تعبدونه من الأوثان والآلهة والأنداد وسائر ما تشركون به، إذا اجتمع جميعه فتظاهرَ أو انفرد بعضُه دون بعض، يقدر على أن يخلق نظيرَ شيء من خَلقي الذي سمّيتُ لكم، فلكم بعبادتكم ما تعبدون من دوني حينئذ عذرٌ، وإلا فلا عُذر لكم في اتخاذ إله سواي، ولا إله لكم ولما تعبدون غَيري. فليتدبر أولو الألباب إيجازَ الله احتجاجَه على جميع أهل الكفر به والملحدين في توحيده، بأوْجز كلام، وأبلغ حجة وألطف معنى يشرف

بهم على مَعرفة فضْل حكمة الله وبَيانه"[1].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

من سعة رحمة الله تعالى ولطفه بالعباد وتيسيره لهم أن جعل آيات ربوبيته، ودلائل ألوهيّته، وشواهد وحدانيته على هيئة نِعَمٍ مبسوطة وآلاء مبثوثة في السماء والأرض يشاهدونها، وينتفعون بها جميعًا، فلا قيام لحياتهم، ولا يطيب عيشهم إلا بها، يعرفها كلّ عاقل معرفة تقوم بها الحجة البالغة، وتنفي شُبَه القلوب الزائغة، وقد أمّن ربّنا عزّ وجلّ بهذا المنهج القويم سبيل التوحيد ومهّده تمهيدًا، فلا يزيغ عنه إلا هالك. قال العلّامة رضا: "إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصِح عن وجود الله، وكماله، وجلاله، وجماله، فكلمات الله في التكوين باعتبار آثارها ومصداقها هي آحاد المخلوقات والمبدعات الإلهية، فإنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون، وللعلم معادون، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأقيسة المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهمًا لكان الله سبحانه استدلّ في كتابه بالأدلة النظرية

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج267/3 بتصرّف يسير.

[2] سورة البقرة آية (164)

الفكريـــة، وذكـــر الـــدور والتسلســـل وغـــير ذلـــك مـــن الاصـــطلاحات الكلاميّـــة، ولم يســـتدلّ بالســـماء والأرض والليـــل والنهـــار والفلـــك والمطـــر وتأثـــيره في الحيـــاة، وغـــير ذلـــك مـــن المخلوقـــات الـــتي أرشـــدنا القـــرآن إلى النظر فيها، واستخراج الدلائل والعبر منها"[1].

وقـد ذكـر ربّنـا عـزّ وجـلّ في هـذه الآيـة المباركـة أصـنافًا عظيمـة مـن هـذه الآيات البيّنات الدالّة على ألوهيته وربوبيّته، وهاك تفصيلها:

الصـــنف الأول: خَلْـــقُ الســـماوات والأرض، وخلـــق الســـماوات والأرض شـيء عظـيم، قـال الله تعـالى: ﴿لَخَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَـرُ مِـنْ خَلْـقِ النَّـــاسِ وَلَكِـــنَّ أَكْثَـــرَ النَّـــاسِ لَا يَعْلَمُـــونَ﴾[2]. وآيات الله تعـــالى ونعمـــه المبثوثـة في السـماء والأرض لا تحصـى، وقـد اكتشـف العلمـاء المعاصـرون بالوسـائل الحديثـة أمـورًا هائلـة، وعجائـب تخضـع لهـا القلـوب، وتـذعن لحكمتهـا العقـول، فالسـماء بمـا فيهـا ذات نظـام كـونيّ جـامع مـتقن محكـم "يـدلّ علـى أنـه صـادر عـن إلـه واحـد لا شـريك لـه في خلقـه وتقـديره، وحكمتـه وتـدبيره، وأقـرب تلـك الطوائـف إلينـا مـا يسـمونه النظـام الشمسـي نسـبة إلى شمسـنا هـذه الـتي تفـيض أنوارهـا علـى أرضـنا، فتكـون سـببًا للحيـاة النباتيـة والحيوانيـة فيهـا، والكواكـب التابعـة لهـذه الشـمس مختلفـة في المقـادير والأبعـاد وقـد اسـتقر كـل منهـا في مـداره وحفظـت النسـبة بينـه وبـين الآخـر بسـنة إلهيـة منتظمـة حكيمـة يعـبرون عنهـا بالجاذبيـة العامـة. ولـولا هـذا النظـام لانفلتـت هـذه الكواكـب السـابحة في أفلاكهـا فصـدم بعضـها بعضـا وهلكـت العـوالم بـذلك، فهـذا النظـام آيـة علـى الرحمـة

[1] رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة طبعة 1990 م، ج2/ 52 بتصرّف
[2] سورة غافر آية (57)

الإلهية، كما أنه آية على الوحدانية. وأما الأرض ففي جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان، فلكل منها نظام عجيب وسنن إلهية مطردة في تكوينها، وتوالد ما يتوالد من أحيائها، ولو دققت النظر في أنواع الجمادات من الصخور المختلفة الأنواع، والجواهر المتعددة الخواص والألوان، لشاهدت من النظام فيها ومن أنواع المنافع في اختلافها وتنوعها ما تعلم به علم اليقين أنها ترجع في ذلك إلى إبداع إله حكيم رءوف رحيم لا شريك له في الخلق والتدبير"[1].

الصنف الثاني: اختلاف الليل والنهار، وهو أن يجئ أحدهما فيذهب الآخر، ويطول هذا فيقصر ذاك، وكل ذلك بحسبان مطرد في جميع الأقطار والبلدان ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع العرض والطول، وقد ذكر هذه الآية بعد خلق السماوات والأرض لأن هذا الاختلاف هو أثر مقابلة الأرض للشمس وحركتها بإزائها، وتفصيل ذلك مشروح في محله من العلم الخاص بهذه المسائل، وفي المشاهد من اختلاف الليل والنهار والفصول، وما للناس في ذلك من المنافع والمصالح آيات بينات على وحدة مبدع هذا النظام المطرد ورحمته بعباده.

وصفوة القول في هذا المقام: أن اختلاف الليل والنهار أثر من آثار النظام الشمسي، وقلنا: إن ذلك النظام يدل على وحدة واهبه ومقدره، ونقول: إن آثاره تدل على ذلك أيضا، وأما دلالتها على رحمته تعالى فظاهرة مما تقدم الاستشهاد به من الآيات آنفا.

[1] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج47/2

الصنف الثالث: الفلك التي تجري في البحر، الفُلْك – بالضمّ – اسم للسفينة ولجمعها، كان الظاهر أن تأتي هذه الآية في آخر الآيات؛ ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة، وما ليس له فيه صنع على حدة. والنكتة في ذكرها عقيب آية الليل والنهار هي أن المسافرين في البرّ والبحر هم أشدّ الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به، والمسافرون في البحر أحوج إلى معرفة الأوقات، وتحديد الجهات؛ لأن خطر الجهل عليهم أشدّ، وفائدة المعرفة لهم أعظم، فكلّ ذلك يجري على سنن إلهية مطردة منتظمة تدلّ على أنها صادرة عن قوة واحدة هي مصدر الإبداع والنظام وهي قوة الإله الواحد الحكيم، الرحمن الرحيم.

الصنف الرابع: ما أنزل الله من السماء من ماء، المراد بالسماء هنا: جهة العلو أو السحاب وقد وصف الله تعالى هذا الجنس من آياته بأعظم آثاره فقال: "فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ" أي: أوجد بسببه الحياة في الأرض الميتة بخلوها من صفات الإحياء كالنمو والتغذي والنتاج، وبثّ: أي نشر وفرق في أرجائها من جميع أنواع الأحياء التي تدبّ عليها، وهي لا تعدُّ ولا تحصى. فوحدة النظام وعدم الخلل فيه تدلّ على أن مصدره واحد، فهو من هذه الجهة يدلّ على الوحدانية الكاملة، ومن جهة ما للخلق فيه من المنافع والمرافق يدلّ على الرحمة الإلهية الشاملة، وقلْ مثل هذا فيما بثّ الله تعالى في الأرض من كل دابّة، فإنها آيات على الوحدة، ودلائل وجوديّة على عموم الرحمة.

الصنف الخامس: تصريف الرياح، ذكر آية الرياح بعد آية المطر للتناسب بينهما وتذكيرًا بالسبب، فإن الرياح هي التي تثير السحاب وتسوقه، وتصريف الرياح وتدبيرها وتوجيهها على حسب الإرادة ووفق الحكمة والنظام، فهي تهبّ في الأغلب من إحدى الجهات الأربع وتارة تأتي نكباء بين بين، وقد تكون متناوحة أي: تهبّ من كل ناحية[1]؛ ومنها العقيم، ومنها الملقحة للنبات وللسحاب، وإذا هبت حارّة في بعض الأماكن والأوقات فهي تهبّ عقب ذلك لطيفة الحرارة أو باردة، وكلّ ذلك يجري على سنة حكيمة تدلّ على وحدة مُرسلها، ورحمة مصرِّفها.

الصنف السادس: السحاب المسخّر بين السماء والأرض، وذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح؛ لأنها هي التي تثيره وتجمعه، وهي التي تسوقه إلى حيث يمطر وتفرق شمله أحيانا فيمتنع المطر، ولم يذكره عند ذكر الماء مع أنه سببه المباشر؛ ليرشدنا إلى أنه في نفسه آية؛ فإنه يتكون بنظام ويعترض بين السماء والأرض بنظام، فهو في ظاهره آية تدهش الناظر الجاهل بالسبب لو لم يألف ذلك ويأنس به، وإنما يعرفها حق معرفتها من وقف على السنن الإلهية في اجتماع الأجسام اللطيفة وافتراقها وعلوها وهبوطها، وقد أخبر الله تعالى عن هذه الأصناف كلها أن فيها "لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" فإنهم هم الذين ينظرون في أسبابها، ويدركون حكمها وأسرارها، ويميزون بين منافعها ومضارّها، ويستدلون بما فيها من الإتقان والإحكام، والسنن التي قام بها النظام، على قدرة مبدعها وحكمته، وفضله ورحمته، وعلى استحقاقه للعبادة

[1] سُمّيت متناوحة لمقابلة بعضها بعضًا، انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: نوح، دار صادر – بيروت، ط1، ج627/2

دون غيره من بريته، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يكمل التوحيد في الإيمان، وإنما يشرك بالله أقلُّ الناس عقلًا وأكثرهم جهلًا"[1].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " أل" في المواضع الأربعة للاستغراق، "وَاخْتِلَافِ" نكرة مضافة تعمّ. "وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ" "وَالْفُلْكِ": السُّفن، ولفظها للمفرد والجمع لا يتغيّر، و"أل" للاستغراق، "الَّتِي" صفة كاشفة، "بِمَا" ما موصول عامّ، أو مصدرية والمصدر المؤول يعمّ، "النَّاسَ" عامّ، "وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ" "ما" موصول عامّ، "فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ" "كل" عامّ، "وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" "وَتَصْرِيفِ" نكرة مضافة تعمّ. "الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ" أل" فيهما للعموم. لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" قوم نكرة، والجملة الفعليّة صفة لها، فهي قيد للنكرة، ومفهومها أن الذين لا يعقلون لا ينتفعون بهذه الآيات.

[1] انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج2/47- 52

المطلب الثالث: التحذير من فتنة اتخاذ الأنداد، ومعالجتها بالموعظة البليغة.

لقد بيّن الله تعالى فيما سبق حقيقة التوحيد أحسن بيان، وأقام عليه الآيات البيّنات والحُجَج البالغة، وجعل تلك الآيات هادية للذين يعقلون. ثمّ انتقل الخطاب بفضل الله تعالى ورحمته إلى الموعظة البليغة؛ لينقذ الذين انحطت نفوسهم، وفسدت فطرتهم، فاتخذوا أمثالهم ومن هم أدنى منهم آلهةً! فساق إليهم المواعظ البليغة، ليعالج بها القلوب المريضة التي لا تعقل الآيات، ويزجر بها مَن توسوس له نفسه باتباع القادة والسادة والكبراء فيما يسخط الله تعالى، وهذا لطف عظيم من الله تعالى بالعباد. والله تعالى أعلم بما يصلح قلوب العباد، فإن كثيرًا ممّن لم تنفعهم الآيات تنفعهم المواعظ البليغة، والمواعظ القرآنيّة مفصّلة على أحوال الناس، تحقّق مقاصدها بالتي هي أقوم، فلا أحسن منها ولا أنفع؛ لأن الله تعالى أعلم بنفوس العباد من أنفسهم. وقد ظنّ بعض الدعاة أن الوعظ أمر سهل يرتجل ارتجالًا، وقد اكتفوا ببعض المؤشرات لقياس مناسبة الموعظة وأثرها في الناس كذرف الدمع، وارتفاع الأصوات بالنحيب، وكثرة المعجبين، وثناء الحضور على الواعظ، وقد وجدنا الذين يعظون التجار وأصحاب السلطان يميلون إلى ما يرضي المستمعين لا ما يعالج مشكلاتهم، ويزيل أطماعهم، ويدفعُ شرّهم وفسادهم. فإذا قلتَ لهم: مواعظكم بعيدة عن الواقع، قالوا: "فقولا له قولًا ليّنًا"! وهو دليل عليهم؛ لأن لين القول لا يتعارض مع توجيه الخطاب إلى محلّ الداء، ودليل ذلك قول موسى عليه السلام لفرعون. وقد أمر الله تعالى

رسولنا محمّدًا عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[1].

إن منهج الوعظ في القرآن الكريم منهج محكمٌ مفصّل تفصيلًا. فانظر كيف عالج هذه الفتنة العظيمة! والرسول عليه الصلاة والسلام أسوتنا في تطبيق منهج القرآن الكريم في الوعظ، وسنته في هذا ظاهرة بيّنة. فما أشدّ حاجة الوعاظ إلى دراسة منهج الوعظ في القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ لتكون مواعظهم سديدة رشيدة، ويكون أثرها أبلغ، ونفعها أتمّ.

وثمّة زمرة تستخفّ بخطاب الوعظ، وتهوّن من شأنه، وتستنكف منه، وتلمز أهله! وفي هذه الآيات ردٌّ قاطع لكيد هؤلاء وأمثالهم. وإنها لموعظة بالغة منتهاها لمن كان له قلب.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[2].

في هذه الآية المباركة صنَّف الله تعالى الناس إلى فئتين:

الفئة الأولى: الذين آمنوا، وهم الذين عرفوا آيات الله تعالى، فقدروا الله تعالى حقّ قدره، فأحبّوه، وأطاعوه، فشهد لهم بشهادة تطير لها قلوب المؤمنين فرحًا، وأورد اللهُ تعالى تلك الشهادة بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على الثبات والاستقرار والدوام، قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ"، وهذا ثناء عظيمٌ يعمّ كلّ المؤمنين، وهي صبغة شريفة لا

[1] سورة النساء آية (63)

[2] سورة البقرة آية (165)

تبديل لها، ومقياس عدل، ومؤشّر صدق ينبغي أن يُرعى حقّ الرعاية في الدعوة والتربيّة والاستنفار. ومحبّة الله تعالى شأنها عظيم، وهي رفعة وتكريم، وأي شرف أن يمتلئ قلبك بحبّ الله تعالى؛ لأن الله تعالى يقابل الحبّ بالحبّ وزيادة، والمحبة روح العبوديّة، "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطّلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كلّ مقام، ومنزلة، وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فمن لا محبة له، لا إسلام له البتة"[1].

وإن "القلب لَا يصلح، وَلَا يفلح، وَلَا ينعم، وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يلتذّ، وَلَا يطيب، وَلَا يسكن، وَلَا يطمئنّ إِلَّا بِعبَادة ربّه، وحبّه، والإنابة إِلَيْهِ، وَلَو حصل لَهُ كل مَا يلتذّ بِهِ من الْمَخْلُوقَات لم يطمئن وَلم يسكن؛ إِذْ فِيهِ فقر ذاتيّ إِلَى ربّه من حَيْثُ هُوَ معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وَبِذَلِك يحصل لَهُ الْفَرح وَالسُّرُور واللذة وَالنعْمَة والسكون والطمأنينة.

وَهَذَا لَا يحصل لَهُ إِلَّا بإعانة الله لَهُ فَإِنَّهُ لَا يقدر على تَحْصِيل ذَلِك لَهُ إِلَّا الله فَهُوَ دَائِما مفتقر إِلَى حَقِيقَة "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" فَإِنَّهُ لَو أعين على حُصُوله كلَّ مَا يُحِبهُ ويطلبه ويشتهيه ويريده، وَلم يحصل لَهُ عبَادَةٌ لله، فَلَنْ يحصل إِلَّا على الْأَلَم وَالْحَسْرَة وَالْعَذَاب، وَلنْ يخلص من آلام الدُّنْيَا ونكد عيشها إِلَّا بإخلاص الْحبّ لله، بِحَيْثُ يكون الله هُوَ غَايَة مُرَاده وَنِهَايَة مَقْصُوده، وَهُوَ المحبوب لَهُ بِالْقَصْدِ الأول، وكلّ مَا سواهُ إِنَّمَا يُحِبهُ لأَجله لَا يحبّ شَيْئا لذاته إِلَّا الله، وَمَتى لم يحصل لَهُ هَذَا لم يكن قد حقّق حَقِيقَة (لَا إِلَه إِلَّا الله) وَلَا حقق التَّوْحِيد، والعبودية،

[1] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط2، 1973 ج 3/ 27

والمحبة لله، وَكَانَ فِيهِ من نقص التَّوْحِيد وَالْإِيمَان بل من الْأَلَم وَالْحَسْرَة وَالْعَذَاب بِحَسب ذَلِك"[1].

الفئة الثانية: الذين لم يعقلوا الآيات، ولم يقدروا الله حقّ قدره، فانحطت هممهم إلى أسفل سافلين، فاحتقروا أنفسَهم، واستعبدوها لعبادٍ أمثالهم من أهل الظلم والبغي والفساد، بل عبدَ كثيرٌ منهم أشياءَ لا تسمع ولا تعقل، فاتخذوهم من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّ الله! وتالله إنه لخزيٌ ودناءة وانحطاط لا يقبل به عاقل ذو نفس زكيّة أبيّة، وقد ساق خبرهم بصيغة تدلّ على الازدراء والتسفيه والتحقير، قال الله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ" فلفظ "مَنْ": اسم موصول أو نكرة موصوفة فيه إبهام للذمّ والتحقير، ولا أحقر ممن اتخذ ندَّه ونظيرَه وما هو أدنى منه معبودًا! بل ويجعله ندًّا لله تعالى! والفعل المضارع (يتخذ، ويحبونهم) يدلّ على أن اتخاذهم وحبّهم ليس مستقرًا ولا ثابتًا، بل يتجدّد ويتغيّر كلّما تجدّدت أسبابه، فقلوبهم في تقلّب واضطراب. وفي هذه العبارة استهزاء وذمّ لا يقدر قدره إلا من علم مقدار الخطيئة التي اقترفها هؤلاء المجرمون! والأنداد جمع نِدّ، والنّدّ هو المِثْلُ، والنظير[2]. ولا يضلّ هذا الضلالَ المبين إلا من سفِهَ نفسَه، فإن العقل، والفطرة، وكلّ شيء في الكون يشهد بالوحدانيّة لله تعالى وباستحالة أن يكون لله تعالى ندّ، وكيف يكون لله ندّ، والله تعالى خالق

---

[1] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، القاهرة، ط3، 2005م، ج10/193-195

[2] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج3/ 368، وابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، ج1/476

كـلّ شـيء! ﴿أَفَمَـن يَخْلُـقُ كَمَـن لَّا يَخْلُـقُ أَفَـلا تَـذَكَّرُونَ﴾[1]، ولـذا كـان الشـركُ أعظـم الـذنوب؛ لأن صـاحبه سـوّى بـين العبـد والـربّ، وبـين القـويّ العلـيّ الـذي يخلـق وبـين المخلـوق الضـعيف الـذي لا يخلـق! فعَـنْ عَبْـدِ اللهِ بـن مسـعود، قَـالَ: قُلْـتُ: يَا رَسُـولَ اللهِ أَيُّ الـذَّنْبِ أَعْظَـمُ؟ قَـالَ: "أَنْ تَجْعَـلَ لِلَّهِ نِـدًّا وَهْـوَ خَلَقَـكَ"[2]. وأول نهـي صـريح في المصـحف وأعظـم النـواهي هـو النهـي عـن جعـل الأنـداد لله عـزّ وجـلّ، ﴿فَـلَا تَجْعَلُـوا لِلَّهِ أَنْـدَادًا وَأَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

فمـا الـذي يـدعو النـاس إلى اتخـاذ الأنـداد اختيـارًا يحبـونهم كحـبّ الله؟ إنهـا الأهـواء والشـهوات الـتي تسـيطر علـى النفـوس، وتسـتحوذ علـى العقـول، وتُعمي وتُصمّ؛ حتى يُذلّ الإنسان نفسه، فيضعها تحت أقدام عبدٍ مثلِه.

ولقـد صـرّحت الآيـة بالآصـرة الجامعـة بـين هـؤلاء المشـركين وبـين الأنـداد ألا وهـي آصـرة المحبّـة محبـة سمـع وطاعـة، فظهـر أن مـدار فتنـة الأنـداد علـى صـرف المحبّـة إلى مـن لا يسـتحقّها؛ لاعتقـاد التـابع المشـرك أن الأنـداد تنفـع وتضـرّ. فالنّـدُّ هـو كـلّ مُتَّبَـعٍ فيمـا يسـخط الله تعـالى. وأصـنافهم كثـيرة، ودرجـات الاتبـاع متفاوتـة. وإن المـرء ليعجـب أن يـرى مـن يقـرأ هـذه المواعظ البليغة ثمّ يصرّ على سلوك سبيل الذلّة والخزي والنّدامة!

وسأذكر ممّن اتُخِذُوا أندادًا من دون الله تعالى ثلاثةَ أصناف:

الأول: أهل السلطان والقوّة من السادة والكبراء.

الثـاني: الـذين يشـرعون مـا لم يأذن بـه الله مـن أهـل السياسـة والثقافـة والإعلام وعلماء السوء والأحبار والرهبان.

---

[1] سورة النحل آية (17)

[2] رواه البخاري، رقم (7520)، ومسلم، رقم (267).

[3] سورة البقرة آية (21–22).

الثالث: الآباء والأجداد.

ولقد عَرَضَ القرآنُ الكريم هذه الفتنة العظيمة، وبيّن أسبابها، وعالجها بأسلوبه البديع الرفيع، فإن هؤلاء القوم لما آثروا الذلّة والهوان، وأعرضوا عمّا يرونه من الآيات البيّنات التي تخاطب العقل بالحجة والبرهان، وترقى بهم في مدارج الرفعة والكرامة، ساقهم الله تعالى إلى مشارف دار الخزي والندامة؛ ليذيقهم من مشاهد الحسرة والعذاب الأليم؛ لعلّ ذلك يزحزح قلوبهم عن غفلتها وهوانها؛ لتُفيق من سكرتها. وهاك المشاهد الثلاثة.

المشهد الأول: رؤية الفريقين العذابَ:

"وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ" أي وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسَهم وهم طرفا الشرك:

الفريق الأول: الأنداد المستكبرون من السادة وأكابر المجرمين.

الفريق الثاني: السفهاء الصاغرون الأذلة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا، فكلاهم ظالم لنفسه، ولو يرون عذابَ الله الذي أعدّه لهم في جهنّم، لعلموا حين يَرون ذلك العذاب أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديدُ العذاب[1]. ولهذا المشهد مقاصد:

الأول: التخويف الشديد من عقاب الله القويّ المتفرِّد بالقوّة والعزّة.

الثاني: بيان عجز الأنداد وتجريدهم من كلّ أسباب القوّة والاستكبار.

الثالث: تحذير الأتباع المغفلين من العاقبة البئيسة قبل فوات الأوان!

[1] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج3/ 283

المشهد الثاني: مشهد تبرؤ السادة والكبراء من التابعين:

"إِذْ تَبَـرَّأَ الَّـذِينَ اتُّبِعُـوا مِـنَ الَّـذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَـذَابَ وَتَقَطَّعَـتْ بِهِـمُ الْأَسْـبَابُ"، التـبرؤ: الـتخلُّص والمفاصـلة والمفارقـة، لقـد تـبرؤوا مـنهم في حـال هـم أشـدّ مـا يكونـون فيهـا إلى الـوليّ والنصـير، فيـا حسـرة مـن قضـى نحبـه في طاعـة السـادة والكـبراء والقـادة والرؤسـاء الـذين اتخـذوهم أنـدادًا مـن دون الله تعـالى، فلـم يُغنـوا عـنهم شـيئًا! وقـد حصـل التـبرؤ حـال رؤيـة العـذاب وتقطُّـعُ الأسـباب؛ "لأنهـا حالـة يـزداد فيهـا الخـوف والتنصُّـل ممـن كـان سـببًا في العـذاب"[1]. "والأسـباب" جمـع "سَـبب"، وهـو كـلّ مـا تسـبّب بـه الرجـل إلى طَلِبَتِـه وحاجتـه. فيقـال للحبـل "سـبب"؛ لأنـه يُتسـبب بالتعلّـق بـه إلى الحاجـة الـتي لا يوصـل إليهـا إلا بالتعلّـق بـه. ويقـال للطريـق: "سـبب"، للتسـبب بركوبـه إلى مـا لا يـدرك إلا بقطعـه. وللوسـيلة "سَـبب"، للوصـول بهـا إلى الحاجـة، وكـذلك كـل مـا كـان بـه إدراك الطَّلِبـة، فهـو "سبب" لإدراكها"[2].

المشهد الثالث: تمنّي التابعين الرجوعَ إلى الدنيا للتبرؤ من الأنداد:

"وَقَـالَ الَّـذِينَ اتَّبَعُـوا لَـوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِـنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّءُوا مِنَّـا كَـذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـالَهُمْ حَسَـرَاتٍ عَلَـيْهِمْ وَمَـا هُـمْ بِخَـارِجِينَ مِـنَ النَّـارِ"، لمـا حـاق العـذاب بالفـريقين: التـابعين والمتْبُـوعين، وتـبرأ المتْبُوعـون مـن التـابعين، ثارت نفـوس التـابعين للانتقـام مـن السـادة والكـبراء الـذين أضـلوهم،

[1] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج91/2

[2] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج3/ 283

فتمنّوا أن يرجعهم الله تعالى إلى الدنيا؛ ليتبرّؤوا من أولئك الأنداد الخبثاء! ولكن هيهات هيهات لما يتمنّون! فليس ثَمّ إلا الحسرات في نار مؤصدة ما هم منها بمخرجين! لقد بلغت هذه المشاهد بالقلوب الحناجر، فكيف بأهل الجحيم!

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ" "النَّاسِ" عامّ، "مَنْ" موصول عامّ، "أَنْدَادًا" مطلق مقيد بالجملة الواقعة صفة له، "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ" "وَالَّذِينَ" موصول يشمل كل المؤمنين، "وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ" الَّذِينَ" ظاهره يعمّ الظالمين، والسياق يخصّصه بالذين اتخذوا من دون الله أندادًا، الْعَذَابَ عامّ، "الْقُوَّةَ" "أل" للاستغراق، والمعنى: أنواع القوة كلّها لله تعالى، وأكّد العموم بلفظ "جميعًا"، قال ابن عاشور: "أي جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة لعدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق"[1].

"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا" "الذين" عامّ في الموضعين، "وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ" "العذاب" المعدّ لأهل النار، "الأسباب" "أل" للاستغراق، فكل وسائل التناصر، وأواصر التواصل بين المجرمين في ذلك اليوم معدومة "وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا" "الذين" للعموم، "لو" للتمني، "كرة" نكرة مطلقة، "كَمَا" ما مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن الفعل يعمّ، "كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ" "أعمال" نكرة

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج95/2

مضـــافة تعمّ، "وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ" "أل" للعهد، أي النار الحامية المعروفة المعهودة لكم.

المبحث الثاني: دعوة الناس إلى الأكل من الحلال الطيب، ونهيُهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعن سلوك مسالكه، وفي اقتران الأمر بالأكل من الحلال الطيب بالنهي عن اتباع الشيطان تذكير بالفتنة الأولى التي دَلَّى فيها الشيطانُ آدمَ وزوجَه بغرور، ثمّ ذكر لنا الله تعالى فتنةَ التقليد واتباع الآباء وتعطيل العقول، وهي نموذج للفتن الناجمة عن اتباع أمر الشيطان بالقول على الله بلا علم.

في هذا الموضع من سورة البقرة يرشد الله تعالى الناس جميعًا إلى ما فيه صلاحهم، ودرء الفساد والفتن عنهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

والعداوة بين البشر والشيطان ضاربة الجذور في أعماق الزمان، فقد بدأ إبليس حربه على آدم عليه السلام مذ ظهرت معالم التكريم والتقديم الربّاني لهذا الخليفة الكريم، وكان الأكل من الشجرة أول معصية اقترفها الإنسان بسبب وسوسة الشيطان، قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا

[1] سورة البقرة آية (168-169)

رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]. هكذا صنع إبليسُ الفتنة الأولى، فأوقع الإنسانَ في شراكه باستدراجه إلى معصية الله تعالى واتباع خطواته.

ولما كانت الآيات في هذا السياق من سورة البقرة لتقرير منهج الوقاية من الفتن، فقد بيّنت مسالك الشيطان وخطواته في الغواية والفتنة والإضلال بأسلوب جامع، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. فما أحسنَ ورود هاتين الآيتين في هذا الموطن! وفي هاتين الآيتين معان كثيرة، أذكر بعضها في مطالب ثلاث:

المطلب الأول: الأمر بالأكل ممّا في الأرض حلالًا طيّبًا، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا"، وقد يثير الأمرُ بالأكل في سياق التحذير من الفتن العظام التساؤل، والذي بدا لي أن ثمة موعظة بليغة تمدّ إلينا صراطها للعبور والاعتبار! فإن أول تشريع تلقّاه البشر هو ما شرعه الله تعالى لآدم عليه السلام من الإذن بالأكل من الجنّة رغدًا حيث شاء، والنهي عن الأكل من الشجرة المعيّنة، والتحذير من كيد الشيطان! فكان ما كان مما سبق بيانه أول السورة عند ذكر قصة آدم عليه السلام. وقد أمر الله تعالى في هذا الموطن الناس بالأكل من الحلال الطيّب، وحذرهم من اتباع خطوات الشيطان؛ وإن في هذا لذكرى بما سلف لمن كان له قلب، وفيه تحذير من الفتن المستقبَلة؛ لأن

[1] سورة الأعراف الآيات (20-22)
[2] سورة البقرة آية (168-169)

الناس قد علموا ما نال أباهم من شؤم المعصية الأولى.

في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا" "الناس" "أل" للاستغراق، "كلوا" الأمر للامتنان والإباحة، "من" للتبعيض، "ما" موصول يعمّ كلّ ما خلقه الله تعالى في الأرض من المطاعم، قال العلّامة ابن كثير: "لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنّه المستقلّ بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول"[1].

المطلب الثاني: التحذير من اتباع خطوات الشيطان، فإن اتباعه يُفضي إلى مشاقّة شرع الله تعالى، ويصرف عن هداه، فإن الشيطان يستدرج من اتبع خطواته إلى المهالك، والخُطُوات: "جمع خُطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فالمعنى النهي عن اتباع الشيطان وسلوك سبله وطرائقه"[2]، "وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ" "لا" ناهية والنهي للتحريم، "خطوات" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، أي: "لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها"[3].

وقد حذرنا الله تعالى تنصيصًا من فتنة الشيطان؛ حتى لا نقع فيما وقع فيه أبونا آدم عليه السلام، فإن وسائل الشيطان وأساليبه في الغواية وتزيين المنكرات كثيرة خبيثة، قال الله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

---

[1] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/ 478

[2] ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ج237/1

[3] الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ، ج196/5

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

المسألة الثالثة: بيان مسالك الشيطان في الإزلال والإضلال، وذكر ثلاثة:

الأولى: الأمر بِالسُّوءِ، والسوء كلّ قبيح شرعًا من قول أو فعل أو اعتقاد، وهذا يقارب ما ذكره الإمام الطبريّ بقوله: "والسوء: الإثم، مثل الضُّرّ، من قول القائل: ساءك هذا الأمر يَسوءك سُوءًا، وهو ما يَسوء الفاعل، وقيل: إن السوء الذي ذكره الله، هو معاصي الله. فإن كان ذلك كذلك، فإنما سَمَّاها الله سوءًا؛ لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله"[2]. وعليه فهو كل ما يسوء صاحبه عاجلًا أو آجلًا، وقد بدأ بذكر السّوء؛ لأنه أعمّ، والفحشاء أخصّ فهي أخبث السوء وأقبحه، والقول على الله بلا علم أخصّ الثلاثة وأعظم إثمًا، وأشدّ ضررًا، فانتقل من الأعمّ الشامل لكلّ أنواع السيئات الصغيرة والكبيرة إلى الأخص الأشدّ خبثًا وسوءًا.

الثاني: الأمر بالفحشاء، و"الفحشاء" هي "كلُّ ما استُفحش ذكرُه، وقَبُح مَسموعه"[3] من الآثام كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

الثالث: الأمر بالقول على الله تعالى بلا علم، فتشرعون ما لم يأذن به،

---

[1] سورة البقرة آية (27)

[2] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج2/ 209

[3] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج303/3

فتحلّـون وتحرمـون، وتنسـبون إليـه مـن الأخبـار مـا لا علـم لكـم بـه، فتصـفونه بمـا لم يصـف نفسـه، وتنسـبون إليـه الشـركاء، والولـد، والأنـداد، "يشـير إلى مـا اختلقـه المشـركون وأهـل الضـلال مـن رسـوم العبـادات ونسـبة أشـياء لـدين الله مـا أمـر الله بهـا. وخصـه بالعطـف مـع أنـه بعـض السـوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على الله"[1].

وعـداوة الشـيطان تحملـه علـى الإضـرار ببـني آدم في أمـور دينـهم ودنيـاهم، وقـد بـيّن القـرآن والسـنة ذلـك أتمّ البيـان، وأفـرد ابـن القـيّم لهـذا الأمـر كتابـه القـيّم "إغاثـة اللهفـان مـن مصـائد الشـيطان"، فـذكر كثيرًا مـن صـور تلبـيس الشـيطان ومكـره وكيـده، ومـا نـراه اليـوم مـن عبـث الشـياطين بالنـاس في مشـارق الأرض ومغاربهـا قـد بلغـت صـوره وأنواعـه الـدرك الأسـفل مـن الفساد والانحطاط.

ومـن أخبـث صـور تلبـيس الشـيطان علـى بعـض المسـلمين مـا نجـده مـن اسـتهانة واسـتخفاف بكيـد الشـياطين بلـغ ببعضـهم مسـالمة الشـيطان وموالاتـه، والـترويج لبضـائعه، ووسـائله الخبيثـة الـتي يسـتتبع بهـا النـاس، وينشـر بهـا السـوء، والفحشـاء، والقـول علـى الله تعـالى بـلا علـم، فـترى بعـض هـؤلاء ينكـرون علـى مـن يـدعوهم إلى اجتنـاب خطـوات الشـيطان، ويسـخرون مـنهم، ويسـتهزئون بمـن يحـذرهم مـن ذلـك، ويعـدّون ذلـك مـن التخلف، واتباع الخرافات، ونقصان العقل.

ويقابـل هـؤلاء قـومٌ بالَغُـوا في تعظـيم كيـد الشـيطان، فـتراهم يخوّفـون النـاس مـن الشـيطان؛ تخويفًـا أشـدّ مـن التخويـف مـن الله تعـالى، وقـد نسـبوا إلى

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج105/2

الشياطين كثيرًا من الحوادث والكوارث الكونيّة وخاصّة الأمراض، والمصائب ونسوا مشيئة الله تعالى.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

قال العلّامة ابن عاشور بقوله: "مِنْ في قوله (مِمَّا فِي الْأَرْضِ) للتبعيض، فالتبعيض راجع إلى كون المأكول بعضًا من كل نوع، وليس راجعًا إلى كون المأكول أنواعًا دون أنواع؛ لأنه يفوت غرض الآية، فما في الأرض عامّ خصصه الوصف بقوله: (حَلالًا طَيِّبًا) فخرجت المحرمات الثابت تحريمها بالكتاب أو السنة.

وقوله: (حَلالًا طَيِّبًا) حالان من "ما" الموصولة، أولهما لبيان الحكم الشرعيّ، والثاني لبيان علّته؛ لأن الطيّب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به، فإذا ثبت الطِّيْب ثبتت الحلية؛ لأن الله رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح. والمراد بالطيّب هنا ما تستطيبه النفوسُ بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ، وهي النفوس التي تشتهي الملائم الكامل أو الراجح بحيث لا يعود تناوله بضرّ جثمانيّ أو روحانيّ، وفي هذا الوصف معنى عظيم من الإيماء إلى قاعدة الحلال والحرام، فلذلك قال علماؤنا: إن حكم الأشياء التي لم ينصّ الشرع فيها بشيء أن أصل المضارّ منها التحريم، وأصل المنافع الحلّ، وهذا بالنظر إلى ذات الشيء بقطع النظر عن عوارضه كتعلق حقّ الغير به الموجب تحريمه، إذ التحريم حينئذ حكم للعارض لا للمعروض.

وقد فُسِّر الطيّب هنا بما يبيحه الشرع، وهو بعيد؛ لأنه يفضي إلى التَّكرار، ولأنه يقتضي استعمال لفظ في معنى غير متعارف عندهم. واللام في (الشَّيْطَانِ) للجنس، ويجوز أن تكون للعهد، ويكون المراد إبليس، وهو أصل الشياطين وآمرهم، فكلّ ما ينشأ من وسوسة الشياطين فهو راجع إليه؛ لأنه الذي خطا الخطوات الأولى"[1].

"الشَّيْطَانِ" "أل" لاستغراق الجنس، فتعمّ الشياطين جميعًا، ويجوز أن تكون للعهد، أي: للشيطان المعهود: إبليس، "والشيطان في لغة العرب مشتقٌّ من شَطَن إذا بعُد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصحّ"[2]، "والمعنى في النهي عن اتباع خُطواته، النّهي عن طريقه وأثره فيما دعا إليه، مما هو خلاف طاعة الله تعالى ذكره"[3]، "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" "إن" وما بعدها للتعليل، وقد وصف الشيطان بالعدوّ المبين: الظاهر العداوة، لأن الفعل "أبان" فعل لازم ومتعدٍّ، "ومعنى المبين الظاهر العداوة من أبان الذي هو بمعنى بان، وليس من أبان الذي همزته للتعدية بمعنى أظهر؛ لأن الشيطان لا يظهر لنا العداوة بل يلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم"[4]. "فهو جدير بأن لا يتبع في شيء وأن يفرّ منه، فإنه ليس له فكر إلا في إرداء عدوّه"[5]. وقد أكّد الخبر عن عداوته بحرف التوكيد، وبوروده بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على اللزوم والثبوت، وقدّم شبه الجملة "لَكُمْ" المتعلق ب "عدوّ" لِما في لفظ "عدوّ" من معنى الفعل، وعلى هذا فإنها تفيد حصر عداوة

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج102/2- 103 بتصرّف

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج115/1

[3] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج301/3

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج104/2

[5] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج2/ 102

الشيطان لبني آدم، ويجوزُ أن تكونَ متعلقةً بمحذوف على أنها حال من "عدوّ"؛ لأنها لو تأخّرت لجاز أن تكون وصفًا له[1].

"إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" "إِنَّمَا" للحصر، ومفهومه: أنه لا يأمر بخلاف ما ذكر، فلا يأمر بخير أبدًا، بل يأمر "بِالسُّوءِ "السوء" هو الإثم، "أل" فيه للاستغراق، يشمل كلّ أنواع السوء، "وسمّي السوء سُوءًا؛ لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه"[2]، وَالْفَحْشَاءِ" هو أقبح الإثم، "أل" فيه للاستغراق، قال العلّامة أبو حيان: "مصدر كالبأساء، وهو فعلاء من الفحش، وهو قبح المنظر، ثم توسّع فيه حتى صار يستعمل فيما يستقبح من المعاني"[3].

"وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" "وَأَنْ تَقُولُوا" المصدر المؤول يعمّ كل قول قيل على الله بغير علم، "مَا لَا تَعْلَمُونَ" "ما" موصول يعمّ، والفعل في سياق النفي عام، والمعنى: ما لا علم لكم به.

---

[1] انظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج285/5

[2] القرطبيّ، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط2، 1384هـ - 1964 م، ج60/2

[3] أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج98/2

المطلب الثالث: التحذير من فتنة التقليد وتعطيل العقول:

إثارة الفتن وظيفة الشيطان بتزيينه، ولَبْسِه الحقّ بالباطل، وخلطه الشبهات بالشهوات؛ فيُزِلَّ الأقدام ويضلّ الأفهام. ومن أعظم الفتن التي يُغوي بها الشيطان بني آدم فتنةُ الإعراض عن دعوة الحقّ بإغرائهم بتقليد الأوائل، والاستمساك بما أَلْفَوا عليه آباءهم من غير نظر، ولا إعمال عقلٍ، ولا تفكّر؛ حتى زعموا أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وهذه الفتنة عامّة يقع فيها أكثر الناس، وقد وقع فيها كثير من المسلمين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

قال العلّامة ابن القيم: "وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظنّ الكاذب والهوى الباطل، قال شيخنا (ابن تيميّة) وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعباد والأمراء والأجناد والمتفلسفة والمتكلمين والعامة وغيرهم يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله ظانّين أن الله أباحه أو تقليدًا لأسلافهم، وأصله العشق الذي يبغضه الله، فكثير منهم يجعله دينًا، ويرى أنه يتقرب به إلى الله إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهذبها، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدميّ ثم ينقله إلى عبادة الله وحده، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، ويسميها مظاهر الجمال الأحديّ، وإما لاعتقاده حلول الربّ فيها واتحاده بها،

[1] سورة البقرة آية (28)

ولهذا تجد بين نساك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقًا وتآلفًا على اتخاذ أنداد من دون الله يحبونهم كحب الله إما تديُّنًا، وإما شهوة، وإما جمعًا بين الأمرين، ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطانيّ الذي يهيّج الحبّ المشترك، فيهيّج من كل قلب ما فيه من الحبّ، وسببُ ذلك خلوُّ القلب مما خُلِق له من عبادة الله تعالى التي تجمع محبته وتعظيمه والخضوع والذل له والوقوف مع أمره ونهيه ومحابّه ومساخطه، فإذا كان في القلب وجدانُ حلاوة الإيمان وذوقُ طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها، وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عبادَه"[1].

وقد بيّن الله تعالى لنا في هذا السياق المبارك خطر التقليدِ وتعطيلِ العقول، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وقد استفتح ربّنا عزّ وجلّ هذا التحذير بأداة الشرط "إذا" الدالّة على كثرة وقوع هذا الأمر، وتكرُّرِه، فالدعاة يهدون إلى الحقّ، ويبلغون الناس لا يفترون، والمقلّدةُ المعطّلة عقولهم معرضون عن رسالة الحقّ مصرّون على اتباع ما كان عليه آباؤهم من الضلال، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

[1] انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار المعرفة – بيروت، ط2، 1975م، ج1/156-157

[2] سورة البقرة آية (170-171)

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ".

ثمّ ضرب الله تعالى لهؤلاء الذين يقلدون آباءهم ويتبعونهم بلا عقل ولا هدى مثلًا في غاية القبح والبشاعة تنفيرًا وتحذيرًا، فقال تعالى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"، قال ابن كثير: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فيما هم فيه من الغي والضّلال والجهل كالدوابّ السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط، هكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا، وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا، ولا تعقله، ولا تبصره، ولا بطش لها، ولا حياة فيها"[1].

وهذا المثل يصّور حال المقلِّدة المعرضين عن هدى الله تعالى، وهو من أشدّ الأمثال تنفيرًا عن التقليد وتعطيل العقول، وعن اتباع ما عليه الآباء من غير عقل ولا بصيرة، فضرب لهم مثلًا "زيادة في تقبيح شأنهم، والزراية عليهم، بقوله: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: صفتهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم (كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) أي: كصفة الراعي للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى ودعوتها إلى الماء وزجرها عن الحمى فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار، شبه حالهم بحال الغنم مع

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج480/1

الراعي يدعوها فتقبل، ويزجرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شـــيئًا ولا تفهم له معنى، وإنما تسـمع أصـواتًا تقبل لبعضـها وتدبر للآخر بالتعويد، ومعنى المثل هنا – كما قال سـيبويه – أن صـفة الكفار وشـأنهم كشـأن الناعق بالغنم، ولا يقتضـي هذا أن يكون كل جزء من المشـبه كمقابله من المشـبه به، وهو ما سماه علماء البيان بعد سيبويه بالتمثيل، وفرقوا بينه وبين تشبيه متعدد بمتعدد، والكفر جحود الحق والإعراض عن النظر في الدليل عليه عند الدعوة إليه، وفرق بينه وبين الضـــلال، فإن الضـــال من أخطأ طريق الحق مع طلبه أو جهله فلم يعرفه بنفسه ولا بدلالة غيره. وأما الكافر فهو يرى الحق ويعرض عنه، ويصرف نفسه عن دلائله وآياته، فلا ينظر فيها، فهو كالحيوان يرضـــى بألا يكون له فهم ولا علم، بل يقوده غيره ويصرِّفه كيف شاء، فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعي تقبل بدعائه وتنزجر بندائه، مُسَـخَّرة لإرادته وقضـائه، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر؟ فدعوتها إلى الرعي وإلى الذبح ســـواء. وكذلك شـــأن كل من يسلم اعتقادًا بلا دليل، ويقبل تكليفًا بغير فقه ولا تعليل"[1].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ" "إِذَا" شـــرطية عامة، "اتَّبِعُوا" أمر للوجوب، "مَا" موصـــول عامّ، "قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا" "ما" موصـــول عام، "آَبَاءَنَا" نكرة مضـــافة تعمّ، "أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَـــيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" "آَبَاؤُهُمْ" نكرة مضـافة تعمّ، "لَا يَعْقِلُونَ شَـيْئًا" الفعل في سـياق النفي يعمّ، فلا عقل لهم، "شَيْئًا" نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَلَا يَهْتَدُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا هدى لهم.

[1] انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج76/2

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْـــمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُـــمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" "الَّذِي" موصــول عام، "ما" موصــول يعمّ، "والنَّعق نداء الغنم"، "لَا يَعْقِلُونَ" يجوز أن يورد مورد الفعل اللازم وهو في ســياق النفي عام، ومعناه: لا عقل لهم، أو يقدر مفعوله شيئًا.

المبحث الثالث: دعوة المؤمنين إلى اتباع شريعة الله في الأطعمة بالأكل من الطيّبات، وشكر الله تعالى، وبيّن لهم المحرّمات من المطعومات وما يحلّ للمضطرّ، وفي هذا دلالة على شمول الشريعة وأنها إنما شُرعت لمصلحة العباد، ثمّ حذَّرهم من الفتن التي تعارض مقاصد هذه الشريعة وتبطلها، فذكر فتنة كتمان الكتاب، وبيع دين الله بثمن قليل، وفتنة الاختلاف في الكتاب والتنازع والشقاق.

وفيه مطالب:

المطلب الأول: بيان أحكام المطعومات اختيارًا واضطرارًا، والأمر بشكر الله تعالى، والتحذير من الفتن التي تلحق المتديّنين.

انتقل الخطاب في هذا الموطن من خطاب الناس كافّة إلى خطاب المؤمنين خاصّة، وقد فصّل ما أجمله من أمر الناس جميعًا بالأكل ممّا في الأرض حلالًا طيّبا، وبيّن ما يتعلق بالأطعمة من الأحكام، فأمر بالأكل من الطيبات، وأمر بشكرِ الله تعالى على ما أنعم، وفصّل لنا ما حرّم (الخبائث)، وما يحلّ للمضطرّ منها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فهاتان الآيتان عامرتان بالامتنان، والتكريم، والتيسير رعاية ووقاية، إنهما

[1] سورة البقرة آية (172-173)

تبيّنان أن الناس ليسوا مطلقي التصرُّف في هذه الحياة، ولا متروكين سدى لا يُؤمَرون ولا يُنهَون، بل لهم ربّ يحكم ما يريد، وكلّ أحكامه لمصلحة العباد. وقد كنت أتساءل: لماذا بدأ بتفصيل أحكام المطعومات قبل غيرها، وهي أوسع الأشياء تخييرًا، والأصل فيها الإباحة، فكلّ إنسان يأكل منها ما يشتهيه، ويناسب طبعه وذوقه، فلماذا بدأ بتفصيل أحكامها؟ وقد ظهرت لي معانٍ والعلم عند الله تعالى، منها:

الأول: شمول التشريع الربّانيّ: إن بيان أحكام المطعومات وتفصيلها على هذا النحو يدلّ على إحاطة التشريع الربّانيّ وشموله، فإذا كانت هذه العناية وهذا التفصيل فيما أصله الإباحة والتخيير، فإن عنايتها بما هو أقوى اقتضاء أمرًا أو نهيًا أَوْلى وأشدّ.

الثاني: أن التشريع كلّه لله تعالى، ولا معقّب لحكمه، فما أحلّه فهو الحلال، وما حرّمه، فليس لأحدٍ أن يحلّه، وأن الشريعة كلّها حقيقة بالتعظيم، والتسليم، والاتباع، فلا يقال: هذه مأكولات، والإنسان حرّ في مطعمه! ولذا ربط هذه المسألة بالشكر وعبادة الله تعالى، ولقد ضلّت الأمم السابقة في أحكام المطاعم، فوقعوا في الشرك بسبب التعدّي فيها، وشرعوا ما لم يأذن به الله، وضيّقوا ما وسّع الله، فحرّموا الطيبات، وتعدّوا حدود ما أنزل الله فأحلّوا الخبائث. ولذا كان تفصيلُ أحكام المطعومات في هذا السياق وربطه بالشكر وعبادة الله تعالى تمهيدًا مناسبًا لما سيأتي ذكره من التحذير من الفتن التي يقع فيها المتديّنون الذين اختصّهم الله تعالى بالرسالات، فبدّلوا كلام الله تعالى، وكتموا كثيرًا من شرائع الله تعالى، واشتروا بها ثمنًا قليلًا، واختلفوا في

الكتاب، وأَوْغَلُوا في الشِّقاق، وَغَلَوا في دينهم غير الحقّ، فاختزلوا الدين فيما تهوى أنفسهم، والمسلمون ورثة الأنبياء، وهم عُرضة لمثل هذه الفتن، فبيّن الله تعالى منهج الهداية والوقاية من الغواية والفتن.

وما نراه من فتنة العبث بالشرائع والشعائر الإسلاميّة بدعوى الحريّة المستوردة من الغرب التي يدعو إلى اتباعها كثيرٌ من أبناء المسلمين تقليدًا لمنظري الثقافة الغربيّة، وقوانينها الوضعيّة، ونظمها الغريبة، فتراهم يرفعون الشعارات المعارضة للشريعة، ويصرحون باعتراضهم على شرائع كثيرة معلومة من الدين بالضرورة بحجّة رعاية حقوق الإنسان! فيعادون من ينادي بالاحتكام إلى الشريعة السمحة؛ حتى بلغ السَّفهُ ببعضهم إلى أن عَدَّ الشريعة كلّها موروثًا تاريخيًّا! وتراهم يعملون ليل نهار؛ لتمكين البرامج الغازية المعادية للإسلام في بلاد المسلمين.

الثالث: إعلام العباد بأن شرائع الله تعالى كلّها أعلاها وأدناها لمصلحة العباد، فقد أمر بأكل الطيبات لحفظ الأنفس والتمتّع بنعيمها، ونهى عن أكل الخبائث درءًا لفسادها، وأذن للمضطرّ بالمحظورات التي تدرأ ما هو أشدّ فسادًا وضررًا. فإذا راعى جلب المصلحة ودرء المفسدة في هذا التشريع الذي أصله الإباحة والتخيير، فمن باب أولى مراعاة ما علت رتبته وعظم شأنه.

وفي هاتين الآيتين مسائل:

المسألة الأولى: الأمر بالأكل من طيبات.

الأمر بالأكل من طيبات ما رزقنا الله تعالى في قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" للإباحة، قال العلّامة الرازيّ: "الأكل قد يكون واجبًا، وذلك عند دفع الضرر عن النفس، وقد يكون مندوبًا، وذلك أن الضيف قد يمتنع من الأكل إذا انفرد وينبسط في ذلك إذا سوعد، فهذا الأكل مندوب، وقد يكون مباحًا إذا خلا عن هذه العوارض، والأصل في الشيء أن يكون خاليًا عن العوارض، فلا جرم كان مسمّى الأكل مباحًا، وإذا كان الأمر كذلك كان قوله: "كُلُوا" في هذا الموضع لا يفيد الإيجاب، والندب، بل الإباحة"[1]. والطيبات: كلّ ما أحلّ الله تعالى لنا أكلَه، ولم يُعدّد أنواع الطيبات؛ لأنها كثيرة غير محصورة. وقد يحرم أكل بعض الطيبات لشيء عارض كالتضرّر من أكلها لمرض.

المسألة الثانية: الأمر بشكر الله تعالى على ما أنعم.

في قول الله تعالى: "وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" يأمر الله تعالى المؤمنين بشكره وحده على ما أنعم به عليهم من الطيّبات؛ حتى يستديموا نعمَه، ويزيدهم من فضله، قال محمد رشيد رضا: "وَاشْكُرُوا لِلَّهِ الذي خلقها لكم، وسهّل عليكم أسبابها بأن تتبعوا سنته الحكيمة في طلب هذه الطيبات، واستخراجها، وفي استعمالها فيما خلقت لأجله، وبالثناء عليه جلّ جلاله وعمّ نواله، واعتقاد أن هذه الطيبات من فضله وإحسانه، ليس لمن اتخذوا أندادًا له تأثير فيها، ولذلك قال: "إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" أي: إن كنتم تخصُّونه بالعبادة وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير، فاشكروا له خلقَ هذه النعم وإباحتها لكم، ولا

[1] الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1420هـ، ج190/5

تجعلوا له أندادًا تطلبون منهم الرزق، أو ترجعون إليهم بالتحليل والتحريم؛ فإن ذلك لله وحده، وإلا كنتم مشركين به كافرين لنعمه، كالذين من قبلكم جهلوا معنى عبادة الله تعالى، فاتخذوا بينهم وبينه وسطاء في طلب الرزق، ورؤساء يشرعون لهم من الدين ما لم يشرعه، ويحلون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه لهم. ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التي غذيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم"[1].

المسألة الثالثة: حصر المحرّمات من الأطعمة.

قال الله تعالى: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ"، لما كان الخبيث المحرّم قليلًا محدودًا فصّله، وحصر أنواعه، فلفظ "إِنَّمَا" للحصر، ومفهوم هذا الحصر أن ما سوى المذكورات غير محرّم، ولكن وردت نصوص تخصّص عموم هذا المفهوم، كقوله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن الحمر الإنسية فإنها رجس"[2]، فحرّم الحمر الأهلية، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير"[3]، فحرّم كلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير، وبعضهم حمل النهي على الكراهة، أما لفظ "حَرَّمَ" فيدلّ على التحريم تنصيصًا، وقد أضاف التحريم إلى الأعيان والذوات المذكورة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، ومعلوم أن الأحكام

---

[1] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج2/78- 79 بتصرف.

[2] متفق عليه

[3] رواه مسلم

تتعلق بأفعال العباد، ولذا يقدّرون مضافًا يناسب السياق مثل: "أكل" أي: حَرَّمَ عليكم أكلُ الميتة، والدم ... ويندرج هذا فيما يسمّى دلالة الاقتضاء. "الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ" "أل" للاستغراق فيهما، وقد خُصّص عموم الميتة والدم بنصوص كثيرة من ذلك:

– مفهوم قوله تعالى: "أو دمًا مسفوحًا" قال الشنقيطي: "وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ مِنَ الدِّمَاءِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: "إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا" فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ كَالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْلُو الْقِدْرَ مِنْ أَثَرِ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَالْمَسْفُوحِ لَمَا كَانَ فِي التَّقْيِيدِ بِقَوْلِهِ: (مَسْفُوحًا) فائدة"[1]، فهذا مخصّص لعموم الدم.

– ومنطوق الحديث: "هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته"[2]، فهذا مخرج لميتة البحر من عموم الميتة.

– و"عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْمَيْتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَالدَّمَانِ: الْكَبِدُ وَالطِّحَالُ"[3]، فهذا مخصّص لعموم الميتة والدم معًا.

"لَحْمَ الْخِنْزِيرِ" لحم نكرة مضافة تعمّ، و"أل" في "الخنزير" للعموم، ويستثنى الخنزير البحريّ بالنصّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾[4]. "مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" "ما" موصول عامّ، "وما أهِلَّ به"؛

[1] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج49/1

[2] الألباني، محمد، صحيح الجامع، قال الشيخ الألباني: صحيح، حديث رقم: 7048.

[3] رَوَاهُ أحمدُ وابنُ مَاجَه وَالدَّارَقُطْنِيّ، وجوّد إسناده الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، ح/4232

[4] سورة الْمَائِدَة آية (96)

لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما قرَّبوه لآلهتهم، سموا اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها، وجَهروا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سمَّى أو لم يُسمِّ، جهر بالتسمية أو لم يجهر: مُهِلٌّ"[1].

المسألة الرابعة: التوسعة للمضطرّ بإحلال ما أصله حرام (في مفسدة)، ولكنه حال الاضطرار يدرأ مفسدة أكبر (ينجي من هلاك الأنفس).

قال الله تعالى: "فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" قال الإمام الطبريّ: "فمن اضطرّ غير باغ بأكله ما حُرم عليه من أكله، ولا عاد في أكله، وله عن ترك أكله –بوجود غيره مما أحله الله له– مندوحة وغنى. وذلك أن الله تعالى ذكره لم يرخّصْ لأحد في قتل نفسه بحال. وإذ كان ذلك كذلك، فلا شكّ أن الخارجَ على الإمام والقاطعَ الطريقَ، وإن كانا قد أتيا ما حرَّم الله عليهما من خروج هذا على من خرج عليه، وسَعي هذا بالإفساد في الأرض، فغيرُ مبيح لهما قتلَ أنفسِهما"[2]، بل يجب عليهما إنقاذ أنفسهما من الهلاك بأكل ما أحله الله تعالى للمضطرّ.

قال العلامة السعديّ: "وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفا بنا، وتنزيها عن المضرّ، ومع هذا "فَمَنِ اضْطُرَّ" أي: ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه، "غَيْرَ بَاغٍ" أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على

[1] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج319/3
[2] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج/3 325

الحلال، أو مع عدم جوعه، "وَلا عَادٍ" أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، "فَلا إِثْمَ" أي: جناح عليه، وإذا ارتفع الجناح الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة، مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب، إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلا لنفسه. وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ". ولما كان الحل مشروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها – أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسَّه المشقةُ. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: الضرورات تبيح المحظورات"[1].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" "الَّذِينَ" موصول يعمّ المؤمنين جميعًا، "كُلُوا" أمر للإباحة، "طَيِّبَاتِ" نكرة مضافة تعمّ، "مَا" موصول عامّ، "وَاشْكُرُوا لِلَّهِ" "الْأَمْرُ فِي اشْكُرُوا لِلْوُجُوبِ لِأَنَّ شُكْرَ الْمُنَعِمِ وَاجِبٌ[2]"، "إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" الشرط للتهييج والإلهاب، فلا

[1] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص81

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج114/2

مفهوم له، "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" "إِنَّمَا" للحصر، ومفهوم هذا الحصر أن ما سوى المذكورات غير محرّم، ولكن وردت نصوص تخصّص عموم هذا المفهوم، كقوله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن الحمر الإنسية فإنها رجس"[1]، فحرّم الحمر الأهلية، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير"[2]، فحرّم كلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير، وبعضهم حمل النهي على الكراهة، أما لفظ "حَرَّمَ" فيدلّ على التحريم تنصيصًا، وقد أضاف التحريم إلى الأعيان والذوات المذكورة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، ومعلوم أن الأحكام تتعلق بأفعال العباد، ولذا يقدّرون مضافًا يناسب السياق مثل: "أَكْل" أي: حَرَّمَ عليكم أَكْلَ الميتة، والدم ... ويندرج هذا فيما يسمّى دلالة الاقتضاء. "الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ" "أل" للاستغراق فيهما، وقد خُصّص هذا العموم بنصوص كثيرة من ذلك:

– مفهوم قوله تعالى: "أو دمًا مسفوحًا" قال الشنقيطيّ: "وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ مِنَ الدِّمَاءِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: "إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا" فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ كَالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْلُو الْقِدْرَ مِنْ أَثَرِ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَالْمَسْفُوحِ لَمَا كَانَ فِي التَّقْيِيدِ بِقَوْلِهِ: (مَسْفُوحًا) فائدة"[3].

---

[1] متفق عليه

[2] رواه مسلم

[3] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج49/1

– ومنطوق الحديث: "هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته"[1].

– و"عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْمَيْتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَالدَّمَانِ: الْكَبِدُ وَالطِّحَالُ"[2].

"لَحْمَ الْخِنْزِيرِ" لحم نكرة مضافة تعمّ، و"أل" في "الخنزير" للعموم، ويستثنى الخنزير البحريّ بالنصّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾[3]. "مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" "ما" موصول عامّ قال الإمام الطبريّ: "وما أهِلَّ به"؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما قرَّبوه لآلهتهم، سموا اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها، وجَهروا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سمَّى أو لم يُسمِّ، جهر بالتسمية أو لم يجهر: مُهِلٌّ"[4]. "فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "مَن" شرطية أو موصولة تعمّ كلّ مضطرّ غير باغ ولا عاد، فأكل، "فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "إثم" نكرة في سياق "لا" النافية للجنس فهو نصّ في العموم، "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ثناء على الله تعالى، وفيه معنى الترغيب والتحبيب والتعليل.

[1] الألباني، محمد، صحيح الجامع، قال الشيخ الألباني: صحيح، حديث رقم: 7048.

[2] رَوَاهُ أحمدُ وابنُ مَاجَه وَالدَّارَقُطْنِيّ، وجوّد إسناده الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، ح/4232

[3] سورة الْمَائِدَة آية (96)

[4] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج319/3

المطلب الثاني: التحذير من فتنة كتمان ما أنزل الله والمتاجرة بالدين

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[1].

لقد بيّن الله تعالى في الآيةَ السابقة أحكام الأطعمة، وفصّلها تفصيلًا؛ حتى لا نَضلّ أو نُضلّ، أو نَزلّ أو نُزلّ كالذين من قبلنا من الأمم، وها هو ربّنا عزّ وجلّ يبصّرنا بعاقبة الذين آتاهم الله تعالى الكتاب؛ ليهتدوا به، ويسعدوا في الدارين، فأعرضوا، واتخذوا كتاب الله تعالى ذريعة إلى تحقيق أطماعهم، وإشباع شهواتهم، فبدّلوا وكتموا واشتروا به ثمنًا قليلًا، فشاقّوا الله تعالى ورسله، وصدّوا عن الحقّ، وساقوا مَن اتبعهم إلى سواء الجحيم، وإنها لخطيئة عظيمة وجناية جسيمة، ولهذا كان الوعيد شديدًا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وقد صوّر القرآن الكريم حالهم الخبيثة تنفيرًا وتحذيرًا، فمن اشترى الضلالة بالهدى، فقد اشترى العذاب بالمغفرة، و"من تعوّض عن آيات الله بالحطام الدنيويّ، ونبذ أمر الله، فأولئك: "مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ"؛ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس

[1] سورة البقرة آية (174-175)

عملهم، "وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" بل يسخط عليهم ويعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، "وَلا يُزَكِّيهِمْ" أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم؛ لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها[1].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ" " الَّذِينَ ومَا": موصولان يعمّان، "وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" "ثَمَنًا" مطلق مقيّد بالصفة: "قليلا". "أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ" "ما" نافية، والفعل بعدها يعمّ، بُطُونِهِمْ" نكرة مضافة تعمّ، "النار" "أل" للعهد،" "وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" الفعلان بعد النفي يعمّان، "أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ " الَّذِينَ" موصول يعمّ، "الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ" "أل" للعهد، "فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ" "ما" اسم استفهام للتوبيخ والإزراء بهم، وهو من صيغ العموم، وبجوز حملها على التعجب قال الرازيّ: "في هذه اللفظة قولان أَحَدُهُمَا: أَنَّ «مَا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِفْهَامُ التَّوْبِيخِ مَعْنَاهُ: مَا الَّذِي أَصْبَرَهُمْ وَأَيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهُمْ عَلَى النَّارِ حَتَّى تَرَكُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَهَذَا قَوْلُ

[1] انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص82

عَطَـاءٍ وَابْـنِ زَيْـدٍ، الثَّـانِي: أنّـه بِمَعْـنَى التَّعَجُّـبِ"[1]. ومعـنى التعجـب في هـذا السـياق "مثـل قولـك لمـن عانـد السـلطان: مـا أصـبرك علـى السـجن الطويـل والقيـد الثقيـل! تهديـداً لـه. ولمـا ذكـر جـزاءهم، وشـرح حـالهم والتعجيـب مـن أمرهم، ذكر السبب الموجب لهذا الإبعاد العظيم والتهديد الكبير"[2].

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج206/5

[2] البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج354/2

المطلب الثالث: التحذير من فتنة الاختلاف في الكتاب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1].

في صدر هذه الآية تأكيد لسنة الله تعالى في مجازاة من شاقّ الله تعالى وشاقّ رسله عليهم السلام، "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"، أي: "ذَلِكَ" العقابُ والجزاء المذكور في الآيتين السابقتين إنما استحقّه من استحقّه جزاء وفاقًا، قال تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"؛ ليتبعوه، فجحدوا به، وبدّلوه، واختلفوا فيه، "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"، وإن سبيل الذين اختلفوا في الكتاب بالباطل (بما لم يأذن به الله تعالى) هو الشقاقُ والبُعدُ عن الحقّ والوفاق؛ فحَكَمَ الله تعالى فيهم بعدله وفق سنته العامّة أن من شاقّ وعاند، عوقب وعذِّب. ومفهومه: أن الذين قابلوا الحقّ بالقبول والاتباع يكونون في ائتلاف ووفاق بلا اختلاف أثيم، ولا شقاق أليم.

وقد أطنب العلّامة محمد رشيد رضا في تنزيل هذه الآية على واقع الأمّة، وسأذكر بعضًا ممّا قاله، قال رحمه الله تعالى: "هذا حكم آخر في الكتاب غير حكم كتمانه، فهو يفهمنا أن الاختلافَ فيه بعدٌ عن الحق ككتمانه؛ لأن الحقّ واحد وهو ما يدعو إليه الكتاب، والمختلفون لا يدعون إلى شيء واحد، ولا يسلكون سبيلًا واحدة، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

[1] سورة البقرة آية (176)

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. وهذا دليل على أنه لا يجوز لأهل الكتاب الإلهيّ أن يُقيموا على خلاف وشقاق، ولا أن يكونوا شِيَعًا. ولما كان اختلاف الفهم ضروريًّا؛ لأنه من طباع البشر، وجب عليهم أن يتحاكموا فيه إلى الكتاب والسنة؛ حتى يزول الخلاف، ولا يجوز أن يقيموا عليه.

والشقاق أثر طبيعيّ للاختلاف، والاختلاف في الأمة أثر طبيعيّ للتقليد والانتصار للرؤساء، ولولا التقليد لسهل على الأمة أن تُرجِعَ في كل عصر أقوالَ المجتهدين والمستنبطين إلى قول واحد بعرضه على كتاب الله وسنة رسوله، ولكنّ التقليد هو الذي أوقعهم في الشقاق البعيد.

هذا – وإن الكتاب لا مثار فيه للخلاف والنزاع إذا صحت النية، فكل من يتعلّم العربية تعلُّمًا صحيحًا، وينظر في سنة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وسيرته، وما جرى عليه السلف من أصحابه والتابعين لهم يسهل عليه أن يفهمه، وما تختلف فيه الأفهام لا يقتضي الشّقاق، بل يسهل على جماعة المسلمين من أهل العلم والفهم أن ينظروا في الفهمين المختلفين وطرق الترجيح بينهما، وما ظهر لكلّهم أو أكثرهم أنه الراجح يعتمدونه، إذا كان يتعلق بمصلحة الأمة والأحكام المشتركة بينها، وما عساه ينفرد به بعض الأفراد من فهم خاص بمعارفه يكون حجة عليه دون غيره، فهو لا يقتضي شقاقًا"[2].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ" يشير باسم الإشارة "ذَلِكَ" إلى عموم

[1] سورة الأنعام آية (153)

[2] انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج2/87-88 بتصرّف.

الجزاء السّابق اللاحق بالذين يكتمون الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا. "الْكِتَابَ" أل للعموم، قال ابن عاشور: "ومن المحتمل أيضا أن يكون المراد بالكتاب الجنس أي الذين اختلفوا في كتب الله، فآمنوا ببعضها وكفروا بالقرآن"[1]. "بِالْحَقِّ" الكامل الجامع للخير المؤلّف بين القلوب، والمانع من الاختلاف الأثيم والشقاق الأليم.

"وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"[2]، "الَّذِينَ" عامّ يشمل كلّ من اختلفوا في كتاب الله تعالى بلا هدى ولا تقى. "اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ" الكتاب هنا هو الكتاب في قوله: "نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"، وقد أظهر لفظ "الْكِتَابَ" لم يقل اختلفوا فيه، "وفائدة الإظهار في مقام الإضمار في قوله: "الْكِتَابِ" أن يكون التذييل مستقلًا بنفسه لجريانه مجرى المثل"[3]؛ لتكون الخاتمة قانونًا عامًّا يبيّن حال الذين يختلفون في الكتاب في كلّ عصر.

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج126/2

[2] سورة البقرة آية (176)

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج126/2

المطلب الرابع: إبطال فتنة اختزال الدين في استقبال المشرق والمغرب، والتذكير بالنموذج الأمثل والأكمل لأهل البرّ والتقوى.

ها هو ربّنا تبارك اسمه ذو الجلال والإكرام ينفي عن الدين فتنة اختزال الدين والغلو والجفاء ويبيّن لنا ميزان البرّ والتقوى. والغلو والجفاء وجهان لفتنة واحدة، فمن غلا جفا، ومن جفا غلا، وكلّ الغلاة جفاة، وكلّ الجفاة غلاة، ولو تتبعت نشوء الفرق والطوائف في بلاد الإسلام لوجدت أن منشأ الانحراف هو الغلو في اتباع ما استحسنته أهواؤهم، وإن لم يكن من البرّ والتقوى في ميزان الشرع، والجفاء عمّا خالف أهواءهم، وإن كان من البرّ والتقوى في ميزان الشرع. ولا استقامة للأمة إلا بإقامة ميزان الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا أقيم الوزن بالحقّ تهاوى الباطل! فلا تطفيف عند سيادة موازين القسط، ولا تزوير، ولا تدليس، ولا تلبيس.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

وقد وقف المفسّرون بين يدي قوله تعالى: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"، فأحسنوا الوقوف، واختلفوا في تعيين المخاطبين! قال الإمام الطبريّ: "اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: ليس البرَّ الصلاةُ وحدها، ولكن البرّ الخصال التي أبينها لكم. وقال آخرون: عنى الله بذلك اليهود والنصارى"[2]. والذي يظهر لي أن الخطاب عامّ. وفي هذا الاستهلال تذكير بالفتنة الجسيمة التي اضطربت فيها موازين الظالمين عند "تحويل القبلة"، وفيها تحذير من فتنة الكتمان والتعريض بالمعرضين والمعترضين على منهج الله تعالى في التشريع، وفيها تذكير بمنّة الله تعالى على الأمّة الوارثة، بما شرع لها وما اختصّها به من الفضل والكرامة، لقد استهلّ الحديث بإبطال مسلك اختزال الدين والانتقاص من حقائقه؛ لأنه يفضي إلى تشويه الدين بالتديُّن الغالي والجافي (المعظِّم بعضَ شُعَب الإيمان، المفرّط في بعضها الآخر). ثمّ بيّن ميزان الاستقامة والبرّ والتقوى، فانظر كيف سيقت هذه الشرائع والشعائر العظام إلى العباد في آية واحدة!

قال العلّامة ابن كثير: "قال الثوري: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ" الآية، قال: هذه أنواع البرّ كلّها. وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية،

[1] سورة البقرة آية (177)

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 336 -338 بتصرف يسير

فقد دخل في عرى الإسلام كلّها، وأخذ بمجامع الخير كلّه"[1].

قال العلّامة دراز: "إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات –تلك المسألة التي أشغلت بال المخالفين والمؤالفين نقدًا وردًّا– ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البرّ، بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلّها؛ نظرية وعملية، في معاملة المخلوق، وعبادة الخالق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فليشغل المؤمنون المصادقون"[2]. ولما كانت خصال البرّ كثيرة، ودرجاتها في الفضل متفاوتة كان لزامًا على الدعاة أن يحدّدوا الأولويات بميزان البر والتقوى؛ لأن تحديد الأوليّات سيمنحنا القدرة على حسن استثمار الطاقات، وتجاوز النزاعات في الأمور المختلف فيها التي تزيدنا فرقة وفشلًا، فلنبادر إلى كسر التقاطع، والتنازع، ولنسعَ في إخماد ناره؛ لنتوجّه معًا نحو المستقبل يدًا بيد في مشاريع نتفق عليها مبنيّة على الصدقً والعدل والفضل.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، "البرّ": التوسّع في فعل الخير مشتقّ من البَرّ خلاف البحر لاتساعه[3]. وهو حقيقة شرعية

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج486/1

[2] دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 247 – 248، بتصرف يسير

[3] انظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط1، 1412 هـ، ج114/1

في كل طاعة قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[1]، فالبر: هو ملازمة طاعة الله تعالى بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه[2]. ولفظ "البرّ": عامّ؛ لأن "أل" للاستغراق، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن وأودع فيه من المعاني ما لا عهد للعرب به كما في هذه الآية، وقد ردّ الله تعالى في هذه الآية على الذين قَصَروا البرّ على تولية وجوههم قبل المشرق والمغرب، وبيّن لهم حقيقة البرّ، فليست حقيقة البر مقصورة على الصلاة خاصة، بل البر يعمّ جميع الأشياء المذكورة، وأهل البرّ هم الذين صدقوا الله في تدينهم، وهم المتقون الله تعالى بترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[3]، وفي هذه الآية أيضا تخليص لحقيقة البرّ ممّا شابها من ميراث الجاهلية، وفيها تأكيد على أن البرّ هو برُّ من اتقى، وبهذا يتجلّى لنا أن لفظ "البرّ" حقيقة شرعية تشمل كلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والتروك الظاهرة والباطنة، فالبرّ: اسم جامع لكلّ ما يؤجر عليه الإنسان[4]، والذي يؤجر عليه الإنسان فعل المأمور به من الواجب والمندوب، وترك المنهي عنه من المحرّمات والمكروهات.

"أَنْ تُوَلُّوا" المصدر المؤول يعمّ، "وُجُوهَكُمْ" نكرة مضافة تعمّ المخاطبين جميعًا من أمّة الاستجابة وأمة الدعوة، "قِبَلَ" ظرف عامّ، "الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ" "أل" للاستغراق، وإرادة العموم أظهر، والله تعالى أعلم، "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" "لَكِنَّ الْبِرَّ" للاستدراك وإثبات لميزان

---

[1] سورة البقرة الآية (189)

[2] انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص88

[3] سورة البقرة الآية (189)

[4] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج213/5

البرّ الحقّ الذي ينبغي أن يعتنى به هو برُّ "مَنْ آَمَنَ" الموصـــول يعمّ، والتقدير: ولكنّ البرّ الحقّ الكـامـل برّ من آمن..."وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ" "أل" للاســـتغراق، ومفهومه أن مَنْ لم يؤمن ولو بواحد من الوارد ذكره في النص فقد انتقض إيمانه، "وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ" "المال" عامّ، "حُبِّهِ": حب المال، "ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـــاكِينَ وَابْنَ السَّـــبِيلِ وَالسَّـــائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ" كلّها تعمّ. "ذَوِي الْقُرْبَى" "ذوي": نكرة مضـافة، "الْقُرْبَى" أل" للاستغراق، والقربى: تعمّ كلّ قربى، والقربى مصـــدر، كالرُّجعى بمعنى القرابة، وهم من يصـــلون إليك من جهة والـديك، وهم درجـات متفـاوتـة، فيقـدّم الأقرب فـالأقرب عنـد تزاحم الحقوق والعجز عن الجمع.

"وَالْيَتَامَى": "أل" للاســتغراق، واليتيم مَن فَقَدَ أباه وهو دون الاحتلام، فلا يُتْمَ بعد احتلام كما ورد عن عَلِيّ رضـي الله عنه أنه قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُـولِ اللَّهِ – صـــلى الله عليه وســـلم– "لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ"[1]. وقدّم اليتامى على المســـاكين؛ لأنهم أضعف، وحاجتهم إلى الرعاية أعظم.

"وَالْمَسَـــاكِينِ" "أل" للاســـتغراق، والمســـكين مِفْعيل من السُّـــكون كأن الفاقة أسكنته[2]، وسلبته القدرة على الحركة والسعي في قضاء حاجاته.

"وَابْـنَ السَّـبِيلِ" نكـرة مضـافة تعـمّ المسـافرين، "وإنمـا قيـل للمسـافر "ابـن السـبيل"، لملازمتـه الطريـق –والطريـق هـو "السـبيل"– فقيـل لملازمتـه إياه في ســـفره: "ابنـــه"[3]. "وَالسَّـــائِلِينَ" صـــفة صـــريحة مقترنـــة ب"أل" تعـــمّ، والسـؤال طلـب الشـيء، "وَفِي الرِّقَـابِ" "أل" للاسـتغراق العـرفيّ، يشـمل

[1] رواه أبو داوود، ح 2875، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) انظر حديث رقم: 7609

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج2/ 15

[3] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج346/3

عتق الرقاب وفكّها من أسر العبودية كالمكاتبين بأداء كتاباتهم. "وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ" "الصلاة والزكاة" حقيقتان شرعيّتان، و"أل" فيهما للعهد، والمعهود عامّ، "وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ" وَالْمُوفُونَ وَالصَّابِرِينَ" صفتان صريحتان عامتان، "بِعَهْدِهِمْ" نكرة مضافة تعمّ، "إِذَا عَاهَدُوا" اسم الشرط يعمّ، والفعل في سياق الشرط يعمّ، "الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ"، "أل" في الثلاثة الألفاظ للاستغراق، "حِينَ" الظرف عامّ، والمعنى كما نقله العلّامة ابن كثير: "في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. وَحِينَ الْبَأْسِ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس"[1]. والصابرين في وقت البأس، وذلك وَقت شدة القتال في الحرب، "أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"، قال الإمام الطبريّ: "أولئك الذين صدقوا"، من آمن بالله واليوم الآخر، ونعتهم النعتَ الذي نعتهم به في هذه الآية. يقول: فمن فعل هذه الأشياء، فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وحقّقوا قولهم بأفعالهم – لا مَنْ ولَّى وجهه قبل المشرق والمغرب، وهو يخالف الله في أمره، وينقض عهده وميثاقه، ويكتم الناسَ بَيانَ ما أمره الله ببيانه، ويكذِّب رسله، وأما قوله: "وأولئك هُم المتقون"، فإنه يعني: وأولئك الذين اتقوا عقابَ الله، فتجنَّبوا عصيانه، وحَذِروا وعده، فلم يتعدَّوا حدوده. وخافوه، فقاموا بأداء فرائضه"[2]. والتقوى: الواو والقاف والياء: كلمةٌ واحدة تدلُّ على

[1] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج488/1

[2] الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج356/3

دَفْع شيء عن شيء بغيره[1]، ووقاه: صانه وستره وحفظه[2]، والتقوى شرعا: اجتناب ما نهى الله تعالى عنه، والتوسّل بالطاعات خشية لله تعالى[3]، فيدخل في ذلك فعل كلّ مأمور به من واجب ومندوب، وترك كلّ منهي عنه من محرم ومكروه.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا" "الذين" عامّ، مفهوم المخالفة غيرهم بخلاف ذلك، "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" مفهوم الحصر غيرهم ليسوا كذلك، "الْمُتَّقُونَ" "أل" للكمال.

[1] انظر: ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط 1979، ج6/ 131،

[2] انظر: الزبيديّ، محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ، ج40/ 226

[3] انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج99/2

الخاتمة:

الحمد لله الذي نعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسّلام على الهادي إلى أقوم سَنَن لرعاية مصالح العباد ووقايتهم الشرورَ والفتن، وبعد، فإن نارَ فتنٍ حامية تخطَّفُ كثيرًا من الناس في بلاد المسلمين؛ فتُبعدُهم عن ربّهم عزّ وجلّ، وتحجبُ الرسالة الخاتمة عنهم، وتُقطِّع الصلةَ بينهم وبين رسولهم عليه الصلاة والسلام، وهي حرب معلنة لزحزحة المسلمين عمّا هم عليه من التديّن الذي يحفظهم في دائرة الإسلام، والواجب على أهل العلم والدعوة تقويّة هذا التَّدَيُّن ووِقايتُه من أسباب التوهين، وصيانته من مضلّات الفتن، وذلك باتباع منهج القرآن الكريم في الرعاية والوقاية.

والخير في الأمّة كثير، والواجب على الدعاة والمصلحين السعي في زيادته وتحسينه.

وأسأل الله تعالى الهدى والسداد لي ولجميع المسلمين.

والحمد لله ربّ العالمين.